هبة جمال أسعد

بعيداً

عن

النسيان

رواية

الاهداء

إلى المناضلين في سبيل الحياة وسط كل هذا الموت .

إلى البائسين في قاع الفرح و الفرحين في قعر البؤس .

إلى من جعلوا من ألستنهم ضماداً لا سيوفاً.

الفكرةُ تعتقلُ صاحبها فالنؤمن بأفكارٍ رحيمة

من زينب إلى يزن

>> لم أنسَ يوماً ليس لأنك ذلك الحب الذي لا ينسى لأن الخيبة حين قررت زيارتي تجسدت بك، لأنني بالهوان الذي أبديته لي فقدت كل شيء ، لم أنس ليس لأن ذكرياتنا الجميلة تطاردني لأن كل تلك الكوابيس التي جعلتني أعيشها لم تغادرني لا في النوم ولا في اليقظة ،لم أنسَ لأنني في الوقت الذي كنت به أسندك كنت تدفعني لأسقط ، في الوقت الذي كنت به أسعد لقوتك كنت تتلذذ بضعفي ، لم أنسَ ليس لأنني لا أريد النسيان ، لأنه هجرني و لم أستطع الاحتفاظ إلى بقليل من الحياة لأتنفس هواءها.

من قال أن الحرب وحدها تقتل أحيانا يكون القاتلُ لا يحملُ سلاحاً ، أتذكرُ كم مرة قتلتني !!؟؟ الغدر أشد ألماً من القتل ، كلُ من مات فني جسده فقط إلا أنا فنيَّت روحي لكن جسدي ما زال حياً. <<

كنتُ بحاجة لأن أصرخ ، لأن أملأ الكون بنحيبي صوت داخلي كان يهاجمني يصفع قلبي و يلكمه ثم يقف عند حنجرتي عاجزاً، لم يكن لديه القوة بأن يخرج كان فقط بارعاً في تعذيبي.

ظننتُ و أخفق ظني ، ناح طموحي على أحلامي التي وضعت فوق رأسها تاج الكمال و ألبستُها ثوب الفرح ، وَجبَ عليّ أن أعيش الواقع فسرحتُ في عقلي بعيداً عنه حتى صفعني لأنظر إلى حدة عينيه و أرى القسوة تأبى أن تفارق عقدة حاجبيه .

كنتُ أذوب فأتلاشى كقطعة ثلج دفعها القدّرُ نحو بركةٍ من الماء ، كان عليّ أن أدرك أن الأحلام تموت و لا يعيش في النهاية سوى الواقع.

كان كرم عائداً إلى المنزل الذي استأجره مع شقيقه(يزن) في مدينة حلب السورية شارد الذهن يتذكر دموع زينب التي لم تجد من حزنها مفر فسقطت أمامه قابضة بقوة على قلبه، و هي تشكو له عدم مبالات شقيقه بها ، ففي الوقت الذي كان يحلم كرم بأن تحبه نصف حبهِ لها كان يزن لا يأبه لمشاعرها بعد أن أسر قلبها بكلامه المعسول فيما مضى.

قرع باب المنزل مستاءً، فتح يزن الباب و نظر إليه: ما بكَ ؟ لماذا هذه العقدة التي بين حاجبيك؟.

دخل غاضباً و جلس على الأريكة متنهداً :إن كنت لا تحبها اتركها ، ليس من أمر يوجبُ عليك البقاء معها ،اعبث في مشاعر من تشاء إلا زينب إنها صديقتي قبل أن تعرفها أنت.

يزن : أولاً أنا لا أعبث ، ثانياً هذه آخر مرة أسمح لك بالتدخل في شؤونا... أنسيت أني شقيقك الأكبر!! ، إن كان ما يزعجك أنها تحبني ولا تكترث لك و أنت صديقها لا تقلق ستلتقي بالكثير من الصديقات عند بدء دوامك في الجامعة.

ابتلع كرم قهره و دخل إلى غرفته بصمت يخفي براكين الغيرة في داخله كيف له أن يخبر شقيقه بأنه يحبها أكثر منه و أنه مستعد لفعل أي شيء لإسعادها كلام كان البوح فيه أصعب من الشعور ، كان يشعر بأنها كانت غلطت عمره حين اصطحب زينب و أخذها إلى كلية الهندسة المدنية حيث يدرس شقيقه و جعلهما يلتقيان ، جلسَ على سريره و أخذ يتذكر ....

كان وقت الاستراحة في المدرسة ، كان هو في الصف الثالث الثانوي بينما زينب في الأول الثانوي ، كان يراقبها بعينيه ، استفزه كلام صديقه حين قال له(منذ أن كانت في الإعدادية في العام الماضي و أنت تأخذني لأمام مدرستها لتراها عن بعد و الآن هي في مدرستنا ، وأنت تقفُ كالأحمق ، كم أنت جبان ، تقرّب منها ، اصطنع موقفاً يجعلكما صديقين) .

كانت زينب تركضُ بينما تطاردها صديقتها سيلين لتأخذ هاتفها من بين يديها ، أراد كرم أن يصنعَ موقفاً سينمائياً ، ظهر في طريقها بشكلٍ مفاجئ ، أرادت أن تبتعد عن طريقه لكنها تزحلقت لأنها غيرت مسارها بشكلٍ غير متوقع ، أمسكها من ذراعها لكنهُ لم ينجح في منعها من السقوط ، و كاد أن يسقط معها ، لم تستطع سيلين أن تتوقف عن الضحك ، اقترب كرم من زينب بعد أن جلست مكانها و غطّت وجهها بكفي يديها(هل أنتِ بخير ؟؟؟، أنا مُتأسف؟؟؟) ،

نظرَ إلى سيلين(أظنها تبكي) ، رفعت زينب رأسها ، كانت المرة الأولى التي تلتقي عيناه بعينيها عن قرب، أربكت نظرتها قلبه ، ابتسمت لهُ و قد احمرّت وجنتاها خجلاً (أنا بخير).

اقتربت إحدى المعلمات منها و نقرتها بالعصا على رأسها (ألم تكبري بعد ، تظُنين نفسك مازلتِ في الإعدادية) ، ثُمَّ تابعت طريقها نحو غرفةِ المعلمين.

ساعدتها سيلين على النهوض بينما عادَ كرم إلى صديقه الذي تحدثَ وهو يضحك(قلتُ لك اصطنع موقفا لتحدثها ، لا أن توقعها أرضاً و تُحرجها هكذا ، لكن يا رجل ما كلُ هذه اللهفة عليها أتحبها حقاً !!!!).

كان يعتصرُ يديه(لأولِ مرةٍ أراها بهذا القرب ، يوجدُ فيها شيءٌ يسحرني يجعلني لا أقاوم النظرَ إليهاً و التفكير بها ، أنت محق ما كان علي أن أحرجها سأحدثها في نهاية الدوام و أعتذرُ بأسلوب لائق).

هكذا بدأت صداقةُ زينب مع كرم ، ثم أخذَّ يغرقُ فيها أكثر فأكثر.

*****

أحببتك حتى أنني حين أتيت إليك ، أتيت بانسياب أغفلت فيه من كنت قبل لقائك .

أتيت بسرعة لم يجب أن أنحدر إليك بها ، بسرعة أنستني عقلي قبل الدخول إلى سردابك.

كانت زينب فاتنة بشعرها الأشقر القصير و عينيها الخضراوين الواسعتين تسكن في مساكن عائلات الضباط في مدينة حلب .

استلقت على سريرها و الأفكار في عقلها تتزاحم (هل يعقل أن يكون يزن لا يحبني!!.... لا لا أظن ذلك... عندما يبدأ دوام جامعتي و أكون معه في نفس الكلية سيتغير كُلَّ شيء.)

قاطع أفكارها شقيقها الصغير سليمان الذي بالكاد يبلغ الخمس سنوات ، دخل غرفتها قائلاً بصوته الطفولي المتقطع: تقول لك ماما تعالي للمطبخ لتساعديها اقترب وصول أبي.

أجابت على هاتفها قبل الخروج كان المتصلُ يزن ، أخذ يُحدثها ، تراوحت كلماته بين الغضب و العتب ثم أخذ يشكو لها انشغاله بسبب سعيه لكسب النقود ووضعه المادي السيء.

لم تكن تعلم أين سيأخذها هذا الحب ، في أي طريق سيرميها ، كان العشقُ يُغشي عينيها حتى لم تعد تدرك الكذب من الحقيقة ، صدقت كل شيء يقولهُ و كذبت نفسها.

*****

كان مساءاً هادئاً جلس فيه يزن و كرم يتناولان طعام العشاء و كلٌ منهما يشغلهُ صوت قلبه ، وضع يزن يدهُ في جيب بنطاله و قال في نفسه (لم يبقَ معي سوى بعض النقود و عمي لن يرسل لنا مالاً حتى بداية الشهر القادم.. ماذا سأفعل !!! بعد ثلاثة أيام عيدُ ميلادِ منال يجب أن أحضر لها هديةً تُفرِحُ قلبها).

لم تكن فقط زينب عمياء في حبه كان هو أعمى أيضاً في حب امرأة أخرى لكن مع أنانيته و حبه لمصالحه أخذ يضحي بزينب شيئاً فشيئاً.

أمسك كرم هاتفه النقال و أرسل رسالة لها كتب فيها (هل لا تزال الجميلة حزينة ؟).

أجابته بكلام ليس حقيقياً كي لا تُغضِبَ يزن (لا على العكس تماماً أنا سعيدة لقد حدثني يزن و حللنا مشاكلنا).

دَبّت الحرب في صدر كرم ، و خَرقت كلماتُها الهدنة التي أقامها مع قلبه ، تَمنى لو أن القبر الذي يدفنُها فيه في كلِّ مرة مَتين ، لا تُبعثرهُ عيناها و تلغيهِ ابتسامتُها.

*****

خَبِئ فرحك من عيون هذه الدنيا كي لا تشي للحزن عنك ، فالحزنُ عاشقٌ تتيمه تلك الضحكة الحقيقية.

خرجت زينب صباحا من غرفتها بعد أن استعدت للقاء يزن ، وجدت والدها جالسا مرتدياً زيه العسكري يشرب القهوة قبل ذهابه لعمله طبعت قبلة حنونة على خده ثم خرجت مندفعة وهي تشعر أن كل شيء يبتسم لها ، توجهت إلى منزل يزن الذي لا يبعد كثيراً عن منزلها ، قرعت الباب ليفتح لها كرم و هو يمسح وجهه المبلل بالمنشفة الموضوعة خلف عنقه نظر إليها باستغراب: زينب!!!!.

-أجل ألم يخبرك يزن أنه قد دعاني لتناول الإفطار معكما؟.، مدّت يدها لتصافحه

ضغطَ على يدها بقوة و رمقها بنظرةٍ حادة : ماكان عليكِ أن تأتي إلى هُنا.

-أُترك يدي سأعود من حيث أتيت، أنت تؤلمُني.

تَمنى لو باستطاعتهِ أن يُقبلَ يدها ، ثُمَّ يضمها إلى صدره بنفس العُنف الذي تمارسهُ غيرتُهُ عليها بحقِه ، تمنى لو يُدخلها إلى قلبهِ لترى كيفَ يتراقصُ حُبها فوق خرابه .

-تحدث برفق عندما رأى نظرة الحزن في عينيها : آعتذر، لا أطردكِ لكنني أخافُ عليكِ لأنكِ رقيقة و أشبه ما يكون للملائكة ، لا تكوني بسيطة لهذه الدرجة.

جاء من خلفه يزن قائلاً : أدخلا لماذا تقفان عند الباب؟.

جلست زينب على الأريكة و بجوارها يزن بينما وقف كرم أمامهما مشتعل الفؤاد و ضربات قلبه تتشاجر كلما سمع كلمة غزل ينطق بها شقيقه لها.

يزن : ما بكَ تقفُ كالتمثال!!! ، أخرج و اشتري لنا شيئاً نتناوله للإفطار.

كان كرم يخشى على زينب من شقيقه ، صوتٌ داخله كان يجعله يشعر بأنه سيؤذيها في أي فرصة تسمحُ لهُ بذلك أجابه ببرود يخفي نيران الغيرة المتقدة: لا رغبة لي في الخروج خارج المنزل سأجهز إفطاراً مما يتوفرُ لدينا .

أنا لست جائعة فنجان من القهوة يكفي، قالت مُبتسمة و هي تشعُ كوردة ربيعية مُتفتحة تداعبها خيوط الشمس.

دخل كرم إلى المطبخ، نظر يزن بحزن إلى زينب مطولاً و هو يحاولُ استعطافها .

-حبيبي ما بك؟.

-أعيش في ديق مادي شديد ، أرفض إخبار كرم به حتى لا يسيطر عليه الهم قبل دخوله للجامعة و أفسد فرحه لا أعلم كيف سنتدبر أمرنا ... إن هذا ما يشغلني عنك يا حبيبتي أبحث عن عملٍ و عندما أعود أكون منهكاً ، سيطردنا صاحب المنزل آه كم أنا متعب.

انتبه يزن لجواله وهو يرن بوضعٍ صامت ،انتشله واضعاً اياه في جيبه دون أن تنتبه له زينب التي كانت شاردة تفكر في طريقة لمساعدته.

استأذن للخروج بحجة إحضار بعض الخبز وبعض الحاجيات ،

دخل كرم ووضع فناجين القهوة على الطاولة أمام زينب ثُمَّ جلس بجوارها

- أين يزن؟.

-ذهب لشراء الخبز.

- : الخبز!!! لدينا كمية وفيرة منه.

- : لا أعلم ربما نسيَّ هذا.

أزاح بيده شعرها الذي كان يغطي معظم عينيها ، قائلاَ : هكذا أجمل.

كان يتمنى لو أنه يستطيع أن يمسك بيديه الرجوليتين يديها الناعمتين و يخبرها أنه يحبها ، و أنه لا يرغب بها كحبيبة فقط بل كظل يرافقه طيلة أيامه ، أخذ يتأملها و هي تشرب القهوة و يتمنى لو تحدث معجزة تجعلها تحبه ،

دخل يزن المنزل وجلس بجوار كرم هامساً في أذنه: أتركنا لوحدنا قليلاً أريد أن أكلمها بموضوع يخص حياتنا سوياً.

لملم حسرته و دخل إلى غرفته دون أن يغلق الباب بالكامل حتى يختلس النظر إليهما فلا يسمح لشقيقه بإزعاجها لو أراد.

انتشلت زينب خاتم الذهب الذي كان هدية والدها بعد تفوقها في الشهادة الثانوية من إصبعها بلطف و قدمته ليزن قائلة : سيساعدك هذا في الخروج من الضيق الذي أنت فيه.

ترددَ في البداية ثم تناوله من يدها واعداً إياها بشراء بدله عندما تسمح الظروف.

لم يستطع كرم أن تجاهلَ استغلال شقيقه لها أكثر ، خرجَ مُقترباً من شقيقه و انتزع الخاتم من يده و هو يصرخ : ماذا تفعل !!!! إنهُ غالٍ على قلبها ، كيفَ تجرُؤ

يزن: تتنصتُ علينا!!!!.

كرم يكفي لا تتدخل بيننا رجاءً ، أنا لا أريد الخاتم، قالتها بحزم.

التفت كرم إليها بخيبة : لكن....

وقبل أن يكمل كلامه دفعه شقيقه باتجاه غُرفتهِ قائلاً: أدخل يكفيكَ تمرُداً.

علقت الكلمات في حنجرته كان يريد أن يقول لها بأنه يستغلها لكنها لم تنصت حملت حقيبتها وخرجت من المنزل ، أخذت الدموع تتجول في عينيه كان يشعرُ و كأن أحدهم يلكم قلبه بقوة ، لقد شعر بالإهانة .

*****

أصبحت زينب بالنسبة ليزن بعد أن عاد لحبيبته بعد أن فسخت خطوبتها الوسيلة التي سيستثمرها بجميع الأشكال كي يبلغ مراده فقد كان والد حبيبته طماعاً يزوجها لأي شخص بوسعه أن يملأ جيبه بالنقود و لم يكن يزن مستعداً لأن يفقدها من جديد لذا قرر أن يحارب كل شيء لينال مناله ، نسيَّ كل الوعود التي قطعها على زينب أنكر كل كلمات الحب ، بمجرد عودة منال له جعل من زينب ضحيةً لهما.

*****

الآن أنتم الأقرب ، الأقرب إلى فوهةِ الذكرى و قبر الواقع ، الآن أغلقُ الصفحات و أرمي الدفتر من عُلوٍ لم تشعروا بعظمته إلى سرداب قبوٍ ستكونون داخلهُ أبعد من أن تخرجوا من بين الأسطر و تتسربوا إلى حياتي من جديد ... مُضيفٌ لدى قلبي و بما أننا وصلنا إلى نهاية المحطة سأودعكم و أستعد للانطلاق في الرحلة القادمة.

في الوقت الذي كان فيه كرم يجلس في غرفته وحيداً ينظرُ إلى صور زينب الموجودة على هاتفه النقال يودعها بقلبه بعد أن تمت الموافقة على

قبوله للدراسة في جامعة تركيا وصلته رسالة منها قالت فيها(أنا آسفة بشأن ما حدث لا أريدك أن تكون حزيناً أنت صديقي المفضل).

كان ينوي أن يرحل دون أن يراها لكن رسالتها شجعته على طلب لقاء قبل سفره على الرغم من أنه كان يخفي في قلبه الكثير من العتب و الأكثر من الحب فأرسل لها(أرغب أن أراكِ في الحديقة القريبة من منزلكِ إن لم يكن لديكِ مانع).

زينب (تعال و اسهر معنا غداً ستذهب والدتي لزيارة بيت جدي و نجهز لسهرة قبل ذهابها).

كرم (أريد أن أراكِ لوحدنا قليلاً لن أؤخركِ).

*****

نظرت زينب إلى نفسها في المرآة وسرحت شعرها بسرعة ثم خرجت من المنزل ببنطالها القطني و قميصها الصيفي ، عندما وصلت إلى الحديقة وقفت بهدوء خلف المقعد الذي يجلس كرم عليه واضعةً يديها بلطف فوق عينيه فوضع يديهِ فوق يديها بلطف وقال مبتسماً: زينب؟.

ثُمَّ أزال يديها بلطف و نظر إليها وقلبه يكاد ينقسم قائلاً: اجلسي أريد أن أحدثكِ.

جلست بجانبهِ وهي تنظرُ إليهِ مترقبةً ما سيقولهُ فقد أحست بأنهُ ليس على ما يرام ، ينظرُ إليها تارةً وتارةً ينظرُ إلى الأرضِ وهو في حيرةٍ من أمره لا يعلم من أين يبدأ حديثهُ فقالت مرتبكة : كرم ما بك... أخفتني...هل من خطبٍ ما؟.

رد كرم والكلام بالكادِ يخرجُ من سجنِ الغصاتِ الذي تعلقُ فيه كلماته: سأسافرُ بعد غد ؟

- إلى قريتك؟....لقد كنت هناك منذ بضعة أيام.

-سوف أسافر إلى تركيا للدراسة هناك ، لقد تمت الموافقة على الطلب الذي قدمته.

-لماذا لم تخبرني؟ ألم نتفق أن ندرس في نفس الكلية وأن نبقى دائما سوياً ، أخفضت رأسها بحزن.

-اتفقنا قبل أن تعرفي أخي...الآن هو سيكمل معكِ وسيعتنِ بك لا تقلقي.

فنهضت زينب وجهشت بالبكاء(أنت أناني) ،ثم مشت خطوات قليلة لتعود إلى المنزل وهي غير مقتنعة بما قاله لها كرم فبسفره يكون قد هدم كل مخططاتهما و آمالهما التي كانا يرسمانها عند دخولهما الجامعةِ سويا فتبعها هو و أمسك بزندها من الخلف وضمها إلى صدره بقوة فارتعش قلبهُ المتصحر شوقاً و المتآكل من الغيرة المتخفية فيه ، تبللت شراايينه التي قد أضناها كتمان حبه و حرض عبق عطرها الدم المتكاسل في عروقهِ يأساً على النشاط من جديد أما هي فقد ذهلت من ما فعل فلم تستطع انتشال نفسها من أحضانهِ إلى بالقوة ونست أمر الدموع التي كانت قد أغرقت خديها بخبر سفره.

نظر إليها مرتبكاً وهو يشعر بالذنب من ما فعل في غفلةٍ من عقلهِ قائلاً : أعذريني...قصدت أن أودعكِ لا أكثر.

بينما كانت هي لا تزال واقفة صامتة لا تقوَ على النظرَ إلى عينيهِ وقد احمرت وجنتاها خجلاً و ارتبكت حواسها من ما فعله صديقها المقرب وشقيقُ محبوبها ، أكمل كرم كلامه كان غاضباً من نفسه لأنه يعلم بأنه قد أحرجها وظناً منهُ أنها لا تزال صامتةً من شدة غضبها و انزعاجها منه دون أن يعلم أنها لا تشعر حالياً إلا بالدهشة قائلا: أنا آسف ، لن أزعجك ربما هذه آخر مرة ألقاكِ بها قبل سفري لا أريد أن أسافر وأنتِ غاضبة مني...أرجوكِ لا تحزني.

حاولت زينب أن تتصرف كالمعتاد فابتسمت و قد غاب عن بالها كل كلام العتاب وقالت له: أنا لست حزينة.......فلنعد لمنازلنا الآن.

-ألا ترغبين في إمضاء بعض الوقت معي ....غداً سأعود إلى قريتي لأودع أهلي وسأسافر من هناك فالحدود التركية قريبة منا جداً.

لم تكن زينب ترغب بسفره فهي تشعر بأن كل شيء يكون ناقصاً عندما لا يكون معها وفي نفس الوقت هذا مستقبلهُ ومن حقهِ أن يختاره كما يشاء سألت مرتبكة : هل أنت حقاً راغبٌ في الذهاب؟

فشرد ذهنهُ وهو ينظرُ في عينيها وقلبهُ يصرخ "لا...لا أرغب..إنَّ يوماً أغادر فيه المدينة إلى قريتي يشعرني بغربتي لبعدي عنكِ فيه...كنت أكره كل إجازة مدرسيةٍ تحرمني من قضاء معظم يومي معكِ وتسلبني رأيت عينيكِ...سيقتلني سفري لكن بُعدي أفضل إن قلبك ليس ملكي ، أخاف إن بقيت أن أؤذيكِ وأسلب ثقتك وثقة شقيقي"

كانت كلها فوضى قلبية عجز لسانهُ عن نطق كلمةٍ منها بينما هي تترقب الإجابةَ وعينيهِ تفضحُ عدم رغبتهِ بالذهاب لكنها لم تكن تعلم ما الذي من الممكن أن يجبره على فعل هذا فتظن أنها تخطئ في ترجمةِ تفاسيرِها.

في ذلك الصمت المخيم رنَّ هاتفها النقال لتجيب : أهلا حبيبي.....أنا في الحديقة مع كرم هل ستأتِ؟.....متى ذهبت للقرية لم تُخبرني !!!...حسناً سأحدثكَ عندما أعودُ إذن......لا تقلق لن أتأخر.

كان قلبهُ ينشطر ، وجدَ في السفرِ حلّاً كي لا يتخذُ من شقيقهِ عدواً ،عندما أنهت المكالمة ابتسم قائلاً : أنا حقاً أرغب بالذهاب فمستقبلي هناكَ سيكون أفضل.

******

لأن الموت ذكياً كان يستدرج من يحب و يترك أحباءهم معلقين بينه و بين الحياة يشتاقون إليه فلا يجدونه، أحيانا تكون زيارة عائلية هي تذكرة ذهاب بلا إياب .

استعدت والدة زينب و شقيقها للسفر في زيارة لعائلتها و إخوتها المقيمين في مساكن الضباط في مدينة تدمر الواقعة في ريف محافظة حمص، كانت زينب لا تزال نائمة طبعت والدتها قبلتين رقيقتين على و جنتيها وغادرت المنزل ، من يعلم أنها ربما تكون رحلة الموت ، قبلة الوداع و بداية المأساة في حياة زينب .

فالموت يأتي مباغتة ، في الوقت الذي نظن فيه أنه لا يرانا يكون متربصاً بنا ،أقرب إلينا من أنفسنا يرافقنا في كل ما نفعل و إذا اشتاق لنا عانقنا دون اكتراثٍ لمشاعرنا اتجاهه أو لدموع أحبتنا.

*****

كان علي أن أنظرُ إلى حياتي من نافذةٍ أوسع بعيداً عن ثقب الحبِ الذي علقت عيناي بجوفه.

في اليوم التالي بدأ دوام الجامعة ليكون مخيباً بالنسبة لزينب ، شعرت و كأنها ترى كل شيء ظننته عظيماً و مبهراً يسقط من علو السماء إلى الأرض ، لم تكن من النوع الذي يثقُ بالصداقات الحديثة أمضت يومها حزينة لقد اختارت كلية الهندسة المدنية لتكون برفقة يزن و كرم لكن ها هو يزن يقطن في قريته غير مكترث و كرم شق طريقه بشكل مختلف على الرغم من حبها ليزن لكنها شعرت بفقد كرم أكثر ، عادت إلى منزلها و هي بالكاد تحبس دموعها في عينيها فتحت الباب ثم دخلت إلى غرفتها ،ارتمت على سريرها و أخذت تبكي .

قاطع خلوتها صوتُ جرس الباب ، مسحت دموعها ثُمَّ فتحت لتجد سيلين الطارقة ، شعرت سيلين أنها ليست على ما يرام ، دخلت و جلست بجوارها (أكنتِ تبكين!!!) .

رفعت شعرها عن وجهها بيديها(لم يحدث شيء كما كان يجب ، سافر كرم و يزن معظم الوقت في قريته و ها أنتِ ستسافرين قريباً ، أشعر بأني وحيدة).

-سنبقى دوماً على تواصل ، لن أسافر إلى دولة أخرى ، ها هي دمشق يمكنكِ زيارتي متى تشائين.

اقتربت زينب و عانقتها(سأشتاقُ لكِ) ، ارتبكت سيلين و تحدثت بصوتٍ مُتردد (لم يعُد بوسعي أن أُخفي عنكِ أكثر أريدُ أن أخبركِ بكلِ شيء)

نظرت زينب إلى عينيها قلقة(أخبريني ما الأمر).

بدأت تتحدث ، أتذكرين حين قضينا ليلة في منزل كرم بعد أن ساءت الأحوال الأمنية ، في ظهيرة اليوم التالي حين جاء والدكِ لاصطحابنا إلى المنزل ، نسيت هاتفي النقال في منزله إن كنتِ تذكرين ، عدتُ حينها ، و تعجبتُ من ما رأيت ، لقد فتحَ كرم الباب و يدهُ تنزف ، دخلتُ لأجده قد كسرَّ المرآة التي في الصالة ، كانت طاولة الطعام مقلوبة على الأرض و كأن معركة قد حدثت هُناك ، تساءلت زينب عن السبب ، أكملت سيلين حديثها ، لقد حاولتُ معرفة ما جرى و سألته (أفعلت هذا بسببِ ما حدث في ليلة البارحة ، أعتذر لكني قد سمعتُ كُلَّ شيء).

طلبَ مني وعداً بعدمِ أخبارك ، ثُمَّ قال بحسرة(إني أحبها ، لا أستطيع التعامل معها على أنها حبيبةُ شقيقي ، لا أستطيعُ احتمال فكرةِ أنها ربما تصبحُ زوجتهُ مُستقبلاً).

قاطعتها (يُحبُني !!! ما الذي حدث بالتفصيل في تلك الليلة فأنا لا أتذكر).

سأخبركِ في النهاية لكن دعيني أُكمل ، استأذنتهُ في الرحيل كي لا أتأخر عليكِ و على والدكِ ، طلب مني أن نلتقي عندما أجدُ فرصةً مناسبة .

التقينا بعد يومين ، تردد في البداية ثُمَّ تحدث متسائلاً(أيعقلُ أنها لم تشعر بأني كنتُ أحبها منذُ البداية و قبل أن تعرف أخي حتى .

-ربما كانت تشعر ، لكنها ظنت أنها تتوهم.

أصر على معرفة سبب كلماتي ، فأخبرتهُ بقصة الفتاة التي كنتِ ترينه من نافذة القاعة الدراسية يقدم لها الهدايا و الورود في بداية العام الماضي ، أخبرني بأنها حبيبة علي و كان وسيطاً بينهما ، قاطعتها زينب(القصة ليست فقط قصة فتاة ، أشعرُ بأن علاقة عميقة تربطني به لا أريدُ أن تدفنها علاقةُ حبٍ ربما تودي بنا إلى فراق أبدي ، أحياناً أشعرُ أني موهومةٌ بحب يزن ، أشعرُ أن قوةً تكادُ تتغلبُ علي تدفعني نحو كرم لكن ها هو الآن في تركيا و لم يتصل حتى الآن ، في الحقيقة أحياناً أشعرُ أني لا أدري ماذا أريدُ بالضبط، أرجوكِ أخبريني ما الذي حدث في تلك الليلة و لا أعرفة أنا حقاً قلقة).

أخبرتها بأن كرم قد سافر لينساها ، ثُمَّ أخذت تروي لها تفاصيل ماحدث في تلك الليلة.

*****

أقام كرم في منزل عمه الذي دعاه للإقامة عنده في تركيا ريثما يتدبر أمور السكن ، في أحد الأيام بينما جلس يتناول الغذاء مع عمه وزوجته و ابنته، كانت جنى ابنة عمه ترمقه بنظراتها بين الحين و الآخر فقد وجدت فيه وسامة و رجولة نالت إعجابها، خاطبته زوجة عمه: لقد كبرت و ازددت جمالاً ، كيف الوضع في سوريا؟.

كرم : لا زالت جميلة و صامدة رغم سعيهم لتشويهها .

جنى : إن كنت تحبها لهذه الدرجة لما جئت للدراسة هنا.

كرم بحزن : أحبها لكن ربما لأنها لا تحبني غادرتها.

العم : معك حق يا بني فالوضع بات صعباً خصوصاً مع استمرار سقوط القذائف في قلب المدينة.

كان كرم يشعر بأنه ترك جزءً منه في سوريا ، كل الحرب و الوضع المتأزم فيها يمكن أن تعالجه نظرة من عيني زينب لتجعله يشعر بالسلام ، فالسلام أحياناً يأتي على هيئة أشخاص يكون عناقٌ منهم هو الأمان وسط الانفجارات و القذائف و الاشتباكات.

*****

هبت رياح الموت من البادية لتصل إلى قلب مدينة تدمر بعد ليلة دموية على محاورها استطاع تنظيم داعش الدخول إلى عروس الصحراء ليمزقوا ثوبها العريق و يهدموا زينتها الأثرية ، حطموا آثارها و أبكوا حضاراتها ، كانت أم زينب تمسك ابنها بين ذراعيها بلهفة و هي ترتجف قائلة : لا تخف يا حبيبي... لا تبكي... سنعود بعد قليل إلى منزلنا لا تخف.

لم يستطع سليمان أن يتوقف عن البكاء و هو يسمع صوت خالاته و جدته وجده يرردون : يا إلهي سوف نموت ......ساعدنا يارب..ارحمنا.... سوف يقتلونا لقد وصلوا إلينا.

أمسكت أم زينب هاتفها النقال و اتصلت بزوجها الذي لم يتمكن من الإجابة بسبب وجوده في اجتماع عسكري فأرسلت له رسالة قائلة (أحبك كثيراً ادعِ لي و لطفلك بالرحمة ، زينب أمانة في رقبتك يا محمد اعتنِ بها).

انتزعوا أم زينب من بين يدي طفلها المتشبث بها وهي تصرخ (لا تبكي يا حبيبي ...كن قوياً فأنت رجل)وضعوها مع عائلتها راكعين ثم أطلقوا

عليهم النار جميعاً في عملية إعدام ميدانية ، ثم حمل أحدهم سليمان بعد أن علا صوت بكائه و ألقى به من شرفة الطابق الرابع .

*****

من فضِلك ، إنتظر للحظة ، أيها الفراق الأزلي أشواقي لا تزال ثائرة ، لم يكُن لقائُنا الأخير يستحقُ أن تخطّ بعدهُ سطر النهاية ، لم يحن الوقتُ لتُسدل الستائر و يصفقَ لك الموت ، لم ترتوي عيناي برؤيتهم بعد ، صدري ما زال يتوق لعناق ، يا محرقةَ البعد لا تأخذيهم و تجعلي أمنيتي بوداعهم معطوبة .

بدأت زينب بالدراسة بعد أن ملّت من محاولة الاتصال بوالدتها ، سمعت صوت فتح الباب فاندفعت باتجاهه و عانقت والدها وهي تقول حزينة (هل حدثتك أمي؟...متى ستأتي هي و سليمان مللت البقاء وحدي هل نسيت أني ابنتها).

جهش الوالد بالبكاء فنظرت زينب إليه و قد تسارعت دقات قلبها خوفاً ، كانت أول مرة ترى والدها الصلب القوي يبكي قالت مرتعدة : أبي ما بك؟، هل حدث لأمي أو سليمان مكروه؟؟؟.

ضمها إلى صدره مجدداً و قال بصوت مخنوق : أصبحوا شهداء عند ربهم ، لقد دخل تنظيم داعش إلى تدمر و قتلوا معظم سكانها.

لم تعد تقوى على الوقوف ، جلست على الأرض ووالدها بجوارها يهون عنها و هو نفسه يكاد يموت ألماً ، كانت تقول بصوت متقطع : لا أصدق... أنا لم أودعهم حتى .... لم أعانقهم ... ليعيدهم الموت قليلاً

لأضمهما إلى صدري ... يا اللللله ..... لماذا؟... يا رب ... قل لي يا أبي أنه كابوس ... أيقظني فأنا لا أقوى على فراق مثل هذا .... لقد غابوا لبضعة أيام و شعرت أن المنزل كان موحشاً كيف سيغيبون للأبد!!!!... إني أنتظر مجيئهما بفارغ الصبر كيف لهذا أن يحدث .... كيف لهذا أن يحدث.

نهضت وتوجهت لغرفتها و أعصابها ترتجف(أنت تمازحني يا أبي أعلم هذا أنت تمزح).

ثم سقطت على الأرض بلا حراك.

*****

انتصف الليل و اكتمل الشوق ، إنهُ موعدُ حضورك ، اتسعت فوهةُ قلبي حتى كادت تبتلعني ، أُسدلت في عقلي الستائر و غطَّ في نومه ، إننا لوحدنا الآن ، أشعرُ بوجودك لكني لا أرى سوى الظلام و أغرقُ في مزيدٍ من اللهفة ، أمدُ يدي إليكِ فلا أنالك ، أحتاج لأن أتنفس تلك النظرات و أغوص في جنةِ عينيك ، كيف سأدخلُ إلى أعماقي و ألتقيكِ.

كان كرم يشاهد أحد أفلام الرعب السينمائية ، كان يسعى جاهداً لإبعاد هاتفه عنه كي لا يتصل بزينب مصمماً أن يقتل حبها داخله ، في الحين الذي كانت تسعى فيه جنى جاهدة للتقرب منه فخرجت من غرفتها بكامل أناقتها و جلست جواره.

-ألم تنامي بعد؟.

-لا ، أرغب بمشاهدة الفلم معك إن لم تمانع.

-بالطبع يمكنك ، يبقى هذا أفضل من السهر لوحدي.

في كل مشهد فائق الرعب كانت تتشبث بذراعه ، و قبل انتهاء الفلم بقليل تظاهرت بالنوم ، طبطب كرم على وجهها برفق قائلا: جنى انهضي و نامي في غرفتك... جنى انهضي.

كان يشعر بإعجابها به لكن قلبه كان مجمداً ينكر حبه لزينب و لا يتسع لأحدٍ سواها.

حملها و وضعها على السرير في غرفتها وقام بتغطيتها ،فتحت عينيها بعد ذهابه مبتسمةً ، تكنُ في نفسها رغبة امتلاك قلبه و الاستحواذ على تفكيره.

*****

عاد يزن من قريته أعدَّ القهوة ثم أمسك هاتفه النقال للاتصال بزينب فقد استغرب من عدم اتصالها به طوال الأربعة أيام التي مضت ، خشي أنها لم تعد تحبه فإن صحَّ ذلك ستفشل كل المخططات التي رسمها مع منال ، أخذ يتصل بها مراراً و تكراراً لكن دون إجابة ، أخذ يرسل لها الرسائل واحدة تلو الأخرى:

(حبيبتي لقد عدت للتو من القرية ، حاولت الاتصال بك لكن شبكة الاتصال في قريتنا ضعيفة).

(لقد اشتقت لكِ كثيراً أرغب في رؤيتكِ بأقرب وقت ممكن).

(حبيبتي أجيبِ ، لما كل هذه القسوة؟).

اتصل بعمه المقيم في تركيا ليحدث كرم و يسألهُ عنها ، فهو لا يعلم رقمه الجديد لأنهما لم يتحدثا منذ الشجار الذي حدث بشأن الخاتم ، ألقى عليه التحية ثم طلبَ أن يحدث كرم الذي لم يكن يعلمُ شيء عن زينب.

كانت دقات قلبه تتسارعُ كُلما سمع اسمها ، راودتهُ رغبةٌ حادةٌ في الحديثِ إليها لكنهُ تجاهلها بالدخولِ إلى غرفتهِ و محاولة النوم.

*****

عادت زينب برفقة و الدها و جارتهما الممرضة (أم أحمد) إلى المنزل بعد الأزمة النفسية التي أودت بها إلى المشفى ، استلقت على سريرها جلس والدها بجوارها يمسح على شعرها: حبيبتي يا نور عيني ... يتوجب عليَّ اليوم أن أعود للعمل.. كوني بخير لأجلي ... ستعتني بكِ أم أحمد ريثما تتحسنين.... اتفقنا؟.

طبعت قبلةً على خد والدها ثم أجابت بصوتها المتعب: أنا بخير يا أبي لا تقلق ، أنت من يتوجب عليك الاعتناء بنفسه لأجلي.

طبع والدها قبلةً على جبينها ثُّم غادر ، بينما دخلت أم أحمد المطبخ لتعد لها كأساً من العصير.

أمسكت هاتفها النقال الذي أصبح مليئاً برسائل التعازي ، قرأت رسائل يزن ثم عاودت الاتصال به.

ألقت عليه التحية ، لم يكن صوتها حيوياً كعادتها ، أخبرتهُ بما حدثَ ثُمَّ غرقت في البكاء فأنهت المكالمة.

أرسل لها رسالة (العمرُ لكِ حبيبتي في الفردوس الأعلى إن شاء الله).

أخذت أم أحمد تهون عليها و تسقيها العصير مع الدواء حتى هدأت لوعتها قليلاً و نامت.

*****

جلست جنى بالقرب من كرم على السرير و أخذت تمسح بيدها على خده وذقنه ، ففتح عينيه مدهوشا : جنى ماذا تفعلين؟... إن رآكِ أحدُ سيفهمنا بشكلٍ خاطئ.

جنى : لقد خلد والديّ للنوم منذ ساعات ألن نسهر مثل البارحة؟ يكفيكَ نوماً.

رد مرتبكاً: حسناً اخرجي و سأتبعكِ.

خرج من الغرفة و نظر إلى أطباق الفواكه و المكسرات التي كانت تضعها على الطاولة في انتظاره ، غسل وجهه و أخذَ يقنع نفسه بأن يحبها كي ينسى كان يعلم أن حبهُ لزينب لم يكن بإقناع ولا بعقل أو إرادة لكنه كان فاشلاً جلس بجوارها فناولته كأس العصير و هي تقول : أودُ أن أُخبرك بشيء.

كرم : تفضلي .

طقطقت أصابعها بارتباك قائلة : أنا أُحبك.

ارتبك خجلاً فلم يسبق له أن سمعها من أحد ، أجابها وفقاً لما قرر فعله: و أنا أيضاً.

جنى : أنت ماذا؟.

غصت في قلبه أن يقول الكلمة التي لم يتخيل أن يقُلها يوماً دون أن يعنيها فعلاً، أخرجها بصعوبة لم يتخيلها : أحبك.

ثمَّ أخذ يقلب بين القنوات ليغير من مجرى الحديث لتظهر أمامه أحدى قنوات الأخبار التي كانت تتحدث عن سقوط عدد من القذائف في كلية

الهندسة و بعض الأحياء في مدينة حلب و ارتقاء العديد من الشهداء من بينهم طلاب جامعيين.

مرَّ في باله سؤال يزن عن زينب قبل أسبوع ، دخل إلى غُرفتهِ ملهوفاً فتبعتهُ جنى نظر إليها مخاطباً : عذراً أريد أن أحدث أصدقائي للاطمئنان عليهم أتركينِ وحدي قليلاً.

جنى: حسناً أنا في انتظاركِ.

كرم : يمكنكِ أن تخلدي إلى النوم إن تأخرت .

ابتسمت : لا سأنتظر يا.... حبيبي.

*****

استيقظت زينب من النوم الذي كانت تقضي معظم وقتها غارقة فيه بسبب تأثير الدواء ، و ضعت يدها على رأسها و أخذت تنظر إلى أخيها و أمها اللذان أصبحا مجرد ذكرى و صورة على الحائط في حين رنَّ هاتفها ، أمسكته لترى بأنه رقمٌ غير سوري لم تعرف رمز دولته ، أجابت لتسمع صوت كرم يقول : زينب؟.

-كرم!.

ارتعش قلبه عندما سمع صوتها: الحمد لله أنكِ بخير.. لقد سمعت عن قذائف سقطت في الجامعة.. الحمد لك يا رب.

-ظننت أنك سحرت بجمال تركيا و لن تتصل أبداً.

-مهما كانت تركيا جميلة فلا يسحرني إلى جمال سوريا ... هل يؤلمكِ شيء أشعرُ بأنك لستِ على ما يرام.

- أنا بخير لا تقلق.

-افتحي المحمول أريد أن أحدثكِ مكالمة فيديو.

- لنأجلها لوقت لاحق أرجوك ، لست مستعدة للظهور أمام الكاميرا.

- في جماع حالاتكِ فاتنة ،ما كُلُ هذا البرود ألم تشتاقي لي ولو قليلاً.

- بلى..لكن...

-من دون لكن افتحي برنامج السكايب لنتحدث.

نهضت زينب جلبت المحمول ، و قامت بالاتصال

تسارعت ضربات قلب كرم كما اعتادت أن تفعل في كل مرة يراها ، لكنه ما إن رآها حتى تفاجئ من حالها كانت ذابلة كذبول سوريا على فراق أبناءها ، شاحبة كقرية مهجورة من قراها ، كان الاحمرار أسفل عينيها المتعبتين يكاد يضخُ دماً ، ابتسمت ابتسامة حزينة ثم أخفضت رأسها بعد أن شاهدت صدمتهُ، قال مرتعداً : ما بكِ هل أنتِ مريضة ... هل يؤلمكِ شيء؟؟؟.

لم تجب حاولت أن تتماسك كي تخبره دون أن تبكِ أكملَ قائلا : ارفعي رأسكِ ... لا تشغلي بالي أكثر تكلمي.

رفعت رأسها ليرى عينيها تكاد تنفجرُ بالدموع ، و جسدها يرتجف محاولة صد موجة البكاء التي تريد أن تجتاحها لكنها لم تستطع مقاومتها أكثر غطت بكفي يديها و جهها و أخذت تبكي بمرارة.

كانت تكوي قلبهُ دموعها ، للمرة الأولى شعر بالندم لأنه سافر ليبتعد عنها ، اقتنع في أنه لو سافر للسماء السابعة فلن يتخلص من حبهِ لها، شعر بالعجز لأنه رآها في هذا الحال و لم يستطع أن يكون سوى صورة على تلك الشاشة الصغيرة ، مسحت دموعها قائلة بصوت مختنق : دعنا ننهي المكالمة و نتحدث لاحقاً.

أجاب : لا لن أنهيها و أنتِ بهذه الحال هل تريدينني أن أموت خوفاً عليكِ أخبريني ما بكِ هل أذاكِ أو زعجكِ أحدهم.

أومأت برأسها علامة الرفض ، فأكمل : إذاً ما بكِ هل حدث لأحد من عائلتكِ مكروه!!!.

استجمعت قوتها: قتل تنظيم داعش..أخي ...و.... أمي و... عائلتها ...في تدمر.

كرم : يا إلهي ... فاليرحمهم الله .. أنا آسف يا زينب سامحيني لأني لم أكن قريباً ، أرجوكِ لا تبكِ .

طلبت منهُ الحديث في وقت لاحق و أنهت المكالمة ، أخذ يتحدث في نفسه (يا إلهي إنها مأساة.. كيف سأهون عليها ليس بوسعي أن أفعل شيء ... سأعود إلى حلب و ابقى بجوارها حتى تعود أفضل من السابق.... اللعنة ليس معي ما يكفي من المال للعودة بالطائرة علي أن انتظر موعد شحن عمي للبضاعة لأعود معه حين يذهب بالشاحنة).

دخلت جنى لتطلب منهُ الحضور لكنهُ اعتذرَ منها عن القدوم و بقي في غرفتهِ جعلت مشاعره التي كان يحاول دفنها تتدفق بقوة أقوى من سابقتها.

كان يحتفظُ بذكرى مميزة له و لزينب ، كلما تملّك منهُ الحنين ، استلقى على سريره و أخذَ يتذكرُ ذاك اليوم

اقتربت نهاية الدوام المدرسي ، كانت زينب و سيلين قد أصبحا معهُ في نفس الصف بعد أن مضى عامان دون تجاوزه لامتحانات الشهادة الثانوية ، علَّت أصوات القذائف التي استهدفت المدينة و بعض الضواحي القريبة منها ، اتصلت كل من والدة زينب و سيلين بهما و طلبا منهما البقاء في منزلِ أحد الصديقات التي تقطنُ قربَ المدرسة بسبب خطورة الطريق إلى المنزل ،

عرضَ عليهما كرم البقاء(يمكنكما البقاء في منزلي)، نظرتا إليه باستغراب(لا دعي للخوف أنا من عليه أن يخاف فأنتما اثنتين و أنا واحد ، اليوم الخميس و يزن لن يأتي حتى يوم السبت) .

ضحكت زينب : سنمرح كثيراً إن بقينا سوياً ما رأيكِ سيلين؟.

وافقت سيلين زينب الرأي و توجهوا جميعاً نحو المنزل ، كانت المدينة فارغة ً كأنها مهجورةٌ من السكان ، لا تمرُ فيها إلا سيارات الإسعاف و السيارات العسكرية.

لم تتحسن الأوضاع الأمنية حتى المساء ، توجب على كل من سيلين و زينب البقاء حتى اليوم التالي لخطورة العودة في الليل ضمن أجواء غير مستقرة.

كانت عينا كرم تراقبان زينب ، متمنياً لو أنها زوجتهُ و ستقيم معه للأبد ، دخلت المطبخ بينما بقي هو وسيلين في الصالة ، دمعت عيني سيلين بسبب النعاس (سأدخل لأنام في غرفتك فأنا لم أنم البارحة حتى الرابعة صباحاً ، أخبر زينب أن توقظني بعد حوالي ساعتين لأتابع السهر معكما).

-حسناً خُذي راحتك ، تصرفي و كأنكِ في منزلك.

بقي لوحده في الصالة ، يقلبُ قنوات التلفاز ، تساءل في نفسه (ماذا تفعل زينب كل هذا الوقت في الداخل).

تبعها إلى المطبخ ، ليجدها جالسةً و أمامها قارورة مشروبات كحولية تبقى فيها أقل من النصف و في يدها كأس تشربُ منه ، انتزعهُ منها (زينب ما هذا !!!).

كان يبدو أنها قد ثملت(أحببت أن أجرب ، لم تخبرني مسبقاً بأنك تشرب؟).

-تجريين!!!لقد كانت القارورة ممتلئة ، إنها ليزن ليست لي.

وقفت وهي بالكاد تتوازن فسندها بذراعه ثم ضغطت بإصبعها على أنفه(أحببت أن أجرب لكن أعجبتني ، إذا بقيت تتحدث بهذه النبرة الغاضبة سأخرجُ الآن و أشكوك لأبي).

ضحكَ بعد أن كان غاضباً فظهرت غمازته ، غرست أصبعها في خده(إن هذه الحفرة جميلة ، أريدُ مثلها ، ، أريدُ أن نرقص سلو ، هل تجيد هذا النوع من الرقص).

أبعد يدها عن خده بلطف و أخذ ينظرُ إلى عينها(لا أجيده ، هل تجيدينهُ أنتِ).

- أنت لا تجيدُ شيء لذلك لم تتجاوز امتحانات الشهادة الثانوية حتى الآن ، و ربما سيكون مصيري كمصيرك لأني لا أجيدُ الرقص لكن لنحاول أرجوك .

أمسكها من يدها و أخرجها إلى الصالة و هو يسندها ، قام بتشغيل أغنية رومنسية هادئة على هاتفه النقال ، وقف أمامها ، وضعت يديها خلفَّ عنقه فلفّ يديه حول خصرها ، كان يتحركان بنفس هذه الوضعية ، لا تبارح عينيه عينيها بينما هي لا تكفُ عن الضحك فيضحكُ معها (أشعرُ أنني في ذاك مسلسلٍ تركي حينَ تتزوج الفتاة العجوز لكنها تخونهُ مع الشاب)

على الرغم من أنهُ كان يتقدُ كالجمر حين تذكرُ شيء يخصُ يزن لكنها تمكنت من إضحاكه هذه المرة(وهل العجوز هو يزن!!!).

دفعته بكفي يديها بلطف ليبتعد(لم أعد أريدُ الرقص ، ظننتُ أني سأتأرجحُ في الهواء لكنك ترقصُ كما لو أنك تحاولُ أن تُنيم طفل و هو واقف).

وضع يدهُ خلف قدميها و الأخرى خلف ظهرها ، ثُمَّ أخذ يدور بها حتى طلبت منهُ أن يتوقف ، وضعها على الأريكة مُستلقية وجلس بجوارها (هل أعجبكِ هذا ؟؟؟؟ ، ألن تكُفي عن الضحك أيتها المجنونة؟؟).

-أعجبني كثيراً ، هل تحبني؟؟.

أربكهُ سؤالها لكنهُ كان يعلمُ بأنها لن تتذكر شيئاً في اليوم التالي ، فهي ليست في وعيها(أحبكِ كثيراً ، أخاف عليكِ أكثر من نفسي لكن...).

لم تترك لهُ المجال بأن يكمل فقد تلقى صفعة خفيفة منها(أنت كاذب ، استلقي بجواري و اروي لي قصة أو غني لي حتى أنام).

استغرب طلبها و ردّ عليها متردداً(نامي أنتِ هُنا ، سأنام أنا على الأريكة المجاورة ، و أغني لكِ ، سنكون قريبين من بعضنا كثيراً على أريكة واحدة).

أمسكتهُ من ذراعه (لكني استحممتُ البارحة ، يمكنكَ أن تشم رائحة يدي و تكتشف بنفسك ، إن رائحتي عطرة ، عندما كنتُ طفلة كنتُ أخاف من الماء و كانت والدتي ترفضُ النوم بجواري إن لم أستحم ، لماذا تضحك إني أقول الحقيقة) .

أمسك يدها و قبلها ثُمّ وضع ذراعهُ خلف رأسها و استلقى ليحضنها بيده الأخرى ، نظرت نحوه فالتقت عيناها بعينيه(أنتَ وسيم ، كنتُ سأُحبك لو أنك لا تحبُ جميع الفتيات ، غنِ لي الآن أريدُ أن أنام).

بدأ يغني أغنيته المفضلة (كل القصايد) للمطرب مروان خوري :

آهٍ على قلبٍ هواه مُحكّمُ ، فاض الجوى منهُ فظُلماً يكتمُ ، ويحيَّ أنا بُحتَّ لها بسرهِ ، أشكو لها قلباً بنارها مُغرمُ ، و لمحتُ من عينيها ناري وحرقتي ، قالت على قلبي هواكَ مُحرَّمُ ، كانت حياتي فلما بانت بنأيها ، صارَّ الردى آهٍ عليَّ أرحمُ.........

ما إن أتمّ الأغنية حتى نامت ، أخذّ يمررُ أصابعه على ملامح وجهها الطفولية(ليتني كنتُ أكثر جُرأة و أخبرتكِ بحبي لكِ منذ البداية) ، ظلَّ على نفس الحال حتى تعبت عيناه و غطَّ في النوم .

استيقظت سيلين عند ظهيرة اليوم التالي ، ، نقرت على ذراع كرم (كرم ، كرم ،...ما هذا!!!!)، نظرَ إليها و هو بالكاد يفتحُ عينيه ثُمَّ أدرك الموقف ،

ردّ مرتبكا بصوتٍ هامس(سأخبرك بما حدث لكن أخفضي صوتك ، لا أريدها أن تستيقظ الآن و تشعر بالإحراج).

أخذَ يسحبُ ذراعهُ من خلفِ عنقها ، لكنها فتحت عيناها و نهضت مذعورة بعد أن رأت اقتراب كرم منها هكذا (ماذا تفعل!!!) ، نظرت إلى سيلين و هي تضعُ يدها على رأسها (ماذا حدث).

أومأت سيلين لها بعدم المعرفة ، أجاب كرم بارتباك (لم أفعل شيء لقد ثملتِ البارحة و بقيتُ بقربك.

غادرت الأريكة غاضبة(وهل تقوم باستغلالي إن ثملت!!!) ثم دخلت إلى الغرفة.

تبعتها سيلين و أغلقت خلفها الباب(لا أظنُ أن كرم المذنب ، كيف تتصرفين بهذا القدر من التهور إلى متى ستبقين هكذا !!! ،كيف عندما تنوين فعل شيء فكري في أسوأ النتائج التي قد تحدث ،خرجت البارحة لشرب الماء ، أنتِ من طلبتِ منهُ فعل هذا بإصرار ، ربما لو كان برفقتك شخص آخر لكان استغلك بالفعل).

غطّت زينب وجهها بكفيها و بكت (يا إلهي كيف سأنظرُ إليه بعد الآن).

طُرق الباب ، سمحت سيلين لكرم بالدخول ثم خرجت، جلسَ جاثياً على ركبتيه أمامها بينما تجلسُ هي على السرير ، وضعَ يديه فوق يديها و أبعدهما عن وجهها(أنظري إلي ، أنا حقاً مُتأسف) ، مسح بكفي يديه دموعها ، أخذ يعتذرُ منها و لم يغادر إلا بعد أن رأى ضحكتها.

*****

بعد بضعة أيام خرجت زينب من غرفتها و قد تأهبت للخروج ، نظر إليها والدها و قد كان يشرب القهوة مع أم أحمد : أميرتي الصغيرة خرجت من غرفتها! .

ألقت عليهما التحية و طبعت قُبلةً على خده ثمَّ غادرت المنزل نظرت أم أحمد إلى والد زينب: الحمد لله أصبحت أفضل حالاً ، ستتحسن تدريجياً إن شاء الله.

الوالد : لقد حطم استشهاد و الدتها و سليمان قلوبنا ، خسرت شريكة حياتي التي طالما أحببتها و طفلنا الصغير في يوم واحد و ها أنا الأن أرى الحزن في عيني ابنتي الوحيدة حزنٌ لا أتخيل أنه سيمحى من قلبها يوماً.

طأطأت أم أحمد رأسها بحزن: ليساعدكما الله يا أبا سليمان.

*****

جلست زينب برفقة يزن في أحد المقاهي ، أمسك يدها وقبلّها قائلاً : أراكِ تتفتحين من جديد.

زينب :الحمد لله أشعر بأنني أفضل من قبل.

يزن: أريدُ أن آخذكِ لمقابلة شخصٍ ستتحسن نفسيتكِ في الحديثِ معه.

ضحكت زينب ضحكة حزينة: طبيبٌ نفسي!!

يزن : لا أيتها المجنونة ، سآخذكِ لمقابلة شقيقتي ياسمين في القرية.

زينب: في القرية!!! لا أستطيع إن قريتكم مليئة بالمتطرفين إن علموا من يكون والدي سيقتلونني.

يزن: هل تظنين أنني من الممكن أن أعرضكِ للخطر ، سوف نذهب بسيارة جارنا التي ستوصلنا لأمام المنزل فهي أخبرتني أن أحضرك لتناول الغذاء معنا لقد أحبتكِ لكثرة حديثي لها عنكِ و سأعيدكِ فوراً إلى منزلكِ.

ارتبكت زينب : لا أدري ، سيغضب والدي إن علم... لماذا لا تأتي هي إلى هنا.

يزن: أخبرتكِ سابقاً أن زوجها كان جندياً في الجيش السوري و منذُ فُقد لم تبارح المنزل، إن كنتِ لا تثقين بي أخبريني كما أن كرم سيأتي ستكون مفاجئة رائعةُ لهُ إن رآكِ.

رنَّ هاتفهُ فأمسكهُ قائلاً: ها هي تتصل ، أخبريها أنتِ أنكِ لا تريدين الذهاب كي لا تغضب مني.

يزن : أهلا ياسمين، إنها ترفض المجيء حدثيها أنتِ.

أعطى الهاتف لزينب فردت عليها مرتبكة : أهلا بكِ.

ياسمين: لماذا ترفضين المجيء إنني أحضر للغذاء من الآن احتفالاً بمجيئك و مجيء كرم.

زينب: آسفة لكني لا أستطيع، لدي ظروف خاصة.

ياسمين بحزن : ظننتكِ أنكِ لن ترفضين طلبي ، لقد أرسلت بجارنا ليحضركما أقسم أني أحببتكِ من حب يزن لكِ ، لا ترديني خائبة فأنا أُحَضِر لاستقبالك منذ البارحة.

شعرت زينب و كأنها ملزمة بالذهاب بسبب الضغط و الإصرار الذي تعرضت له ،و شجعها على ذلك رغبتها المُلحة برؤية كرم ، أمسك يزن يدها بلطف : ما بكِ يا جبانة ، لن يمسكَ أحدٌ بطاقتكِ الشخصية حتى ، فجارنا الذاهبين معه يمر بكل حواجزهم دون أن يتعرض لهُ أحد.

اعتاد العاشق أن يصدق معشوقه أكثر من تصديقهِ لنفسه ، و بالفعل وافقت أن تذهب معه بكل سذاجة رغم الإحساس السيء الذي يراودها ،

لم تكن المسكينة تعلم أن منال من كانت تحدثها و أنها تذهب بنفسها و بوالدها نحو جحيم الدنيا.

*****

تأتيني عند كلِّ شتاء مع رائحة المطر التي طغت عليها رائحة عطرك الزكية الممزوجة برائحة الياسمين ، مع حرارة أكواب المشروبات الساخنة الدافئة كعينيكِ ، أراكِ في انعكاس السماء على برك الماء الصغيرة التي كونتها الأمطار فيزيد شوقي و يُثلجُ قلبي حنيناً ، و أشعر ببرد داخلي يستبيح أعماقي و تلهثُ روحي متعطشةً إليكِ

مَسحَ كرم قطرات المطر المتساقطة على وجهه و صعد بجوار عمه في الشاحنة مشتاقاً تائقاً لرؤية محبوبته ، بينما كانت جنى واقفة أمام المنزل ترمقه بنظرات معاتبة فمنذ قال لها أنه يحبها و هو يتجاهلها ، سارت الشاحنة وهو يتخيل فرح زينب برؤيته عندما يطرق باب منزلها و تراه ، لم يخبرها بأنه قادم أراد أن يقنعها بالفعل أنه يستحيل أن يتخلى عنها كما ظنت و لو أنه كان في أقصى بقاع الأرض فعندما تحتاجه سيسلك طريقه إليها حتى لو زحفاً.

*****

أوشكت السيارة التي صعدت فيها زينب و يزن أن تصل إلى أول نقطة تفتيش للمسلحين على طريق القرية ، أمسك السائق وشاحاً كان موضوعاً

أمامه و ناوله لزينب قائلاً: غطي به شعرك قبل أن نصل كي لا تسببي لنا مشكلة.

غطت شعرها و يداها ترتجف ، نظر إليها يزن قائلا: لا تخافي لن يحدث شيء.

قبل أن يصلوا ، طلبت من السائق التوقف و العودة (يزن لم أعد أريدُ الذهاب أعدني إلى منزلي) أكمل السائق طريقهُ و تصرفَ يزن كأنهُ لم يسمعها ،

ارتعدت حواسها عندما رنَّ هاتفها ليكون المتصل والدها فصرخت (ألم أقل لكما أني أريدُ العودة ، يا إلهي إنه أبي... لم يجدر بي أن آتي إلى هنا.... يزن دعنا نرجع أرجوك سأموت رعباً قبل أن نصل إلى منزلك).

صرخ يزن في وجهها: يكفي اصمتي أوشكنا أن نصل.

ثم انتشل هاتفها من يدها بقوة و ألقى به من النافذة .

نظرت إليه باستغراب و قد امتلأت عينيها بالدموع أرادت أن تسأله عن سبب تصرفه هذا لكن نقطة التفتيش أجابتها ، فتح أحد المسلحين الملثمين باب السيارة الذي تجلس من جهته ثم قال لها: هيّا انزلي.

نظرت إلى يزن الذي كان قد وجه نظره إلى الأرض و لم يحرك ساكناً لا هوَ ولا السائق ، وضعت يدها فوق يد يزن قائلة : إنهم يطلبون مني النزول ألن تفعل شيئاً !!!... أجبهم ... ألم تعدني أن أعود إلى منزلي بسلام... يا حبيبي ما بكَ تحدث.

صرخ الملثم : قلتُ لكِ انزلي ، قبل أن أُنزلكِ رغماً عنكِ.

قال لها السائق : اذهبي معهم كي لا يؤذوكِ .

زينب و الدموع تغرق خديها : يزن أرجوك لا تدعهم يأخذوني...أرجوك.

أمسكها الملثم من شعرها و أخرجها رغما عنها و هي تصرخ باكية : يزن ساعدني .... أرجوك لا تتركني معهم .

أدركت أن يزن وراء كل هذا فهو لم يحرك ساكناً أو ينطق بكلمة ، لم يستطع عقلها استيعاب ما يحدث ،كيف فعل بها يزن هذا؟ ... منذ أكثر من سنة و هما حبيبان لم تحزن قلبه يوماً ، و الآن تنظر حولها لتجد نفسها بين العديد من المسلحين و يزن أمامها لم يتظاهر حتى بأنه يدافع عنها ، شعرت أنها فريسة لكل من حولها ضعيفة ليس لها حول ولا قوة ، نظرت ليزن قبل أن تخضع لخيبتها و تذهب معهم قائلة بمرارة : بقدر عجزي الآن ... بقدر هواني عليك ...أشكوك لله يا يزن... أشكوك لله يا يزن .... أشكوك لله يا يزن.

أكملت السيارة طريقها ، خاطب السائق يزن قائلاً : أراكَ تأثرت ، من يفعل مثل هذه الأمور يجب أن يَكسِر قلبه بقساوته الصخر.

ثم أمسك رزمتين من المال من عملت الدولار قائلاً هذا جزءٌ من حصتك و التتمة تصلك بعد إنهاء العملية.

*****

وصل كرم مساءا إلى أمام شقة زينب بعد أن ترك بطاقته الشخصية لدى الحرس عند الباب الخارجي ، قرع الباب ممسكاً باقة من الأزهار، اندفع والد زينب مسرعاً نحو الباب ظناً منه أن ابنته قد عادت ، خاب ظنهُ عندما رأى أن كرم الطارق فخاطبه قبل السلام قائلاً : هل رأيت زينب؟ هل تعلم أين هيَ؟.

استغرب كرم من سؤاله : لقد جئت لزيارتها و الاطمئنان عنها ، أليست هنا!!!!.

-لقد خرجت منذ الصباح و لم تعد حتى الآن ، أخشى أن يكون قد حدث معها مكروه... تفضل بني.

لم يعد يدري كرم بماذا يجيب فقال : هل سألت صديقاتها؟.

-نعم ، لم ترَ أحداً منهم ظننت أنها ربما تكون معك... يا إلهي يتوجب عليَّ أن أذهب للعمل لأمر طارئ.. ما هذه المصائب .

- اهدأ يا عمي يمكنك الذهاب للعمل سأذهب أنا للبحث عنها لا تقلق ، لكن ماذا إن جاءت للمنزل و لم نعلم.

-سأتصل بأم أحمد لتجلس في المنزل و تخبرنا عندما تعود ... ابقَ على اتصالٍ معي بين الحين و الآخر.. هل رقمي معك؟.

-نعم سأتصل بك الآن لتسجل رقمي لديك.

وقبل ذهابه للعمل وضع يده على كتفِ كرم قائلاً ببؤس :يا بني في كل مرة أذهب فيها إلى العمل لا أعلم فيما إذا كنت سأعود أم لا ، أعلم أنك صديق زينب منذ زمن و هي الآن لم يبقَ لها أحدٌ غيري لقد قتل أقارب والدتها في أحداث تدمر و أنا كنت وحيداً لوالدي رحمهما الله ، إن حدث لي مكروه اعتنِ بها لا تسمح لأحدٍ بأذيتها أو استغلالها ساعدها في كل شيء تستطيع أن تساعدها به إنها أمانة في رقبتكَ هل ستحمل الأمانة؟.

-فليحميك الله يا عمي .... زينب أمانتي سواء في وجودك أو غيابك.

غادر والد زينب المنزل و كأنه يحمل كل هموم الدنيا فوق ظهره و كأن الكون بوسعه يجلس فوق قلبه .

*****

بينما يجلس يزن في الصالة و شقيقتهُ في المطبخ تغسلُ الأطباق ، يفكر في طريقة يخبرها به عن رغبته بالزواج من منال ، رنَّ هاتفه النقال ليكون كرم هو المتصل من رقمه السوري أجاب مرتبكاً : أهلاً كرم ، متى عُدت لسوريا؟.

كرم : هل رأيت زينب؟.

يزن : لا لقد انهيت علاقتي بها البارحة، متى عدت إلى سوريا؟.

خشي كرم أن تكون زينب قد فعلت بنفسها مكروه فرد غاضباً: أنهيت علاقتكَ بها؟؟؟ ألم تتظاهر بأنك تحبها حد الجنون ... أنا من سينهي علاقتهُ بك إن حدث لها مكروه.

و أغلق المكالمة قبل أن يسمع رد يزن ، فنظر يزن إلى ياسمين قائلاً: لقد جُنَّ الفتى.

قدمت ياسمين ، طلبَ منها أن تحدث والدة حبيبته منال والتي تكون أيضا شقيقة زوجةِ عمه عن رغبتهِ في الزواج منها ، و أخبرها أنهُ عملَ جاهداً ووفر كل تكاليف الزواج .

*****

لم يترك كرم مشفى في مدينة حلب إلا و سأل فيها عن زينب ، ثم أخذ يسأل في مكاتب الشرطة دون فائدة ، جلس على عتبة باب منزله قبل دخوله من التعب(يا إلهي أين اختفت ، ليس لها أثر ، أرجوكَ يا ربي أن تكون بخير، كنت أدعو دوماً أن تحبني كما أحبها لكن إن كان فراقها عن يزن سيلحق بها الأذى فأنا أفضل أن تبقى معه).

*****

ماذا لو استيقظت و وجدت أن كل شيء كان حلماً ، أنك مازلت بنسختكَ الأصلية من دون ذاك التعديل و تلك الندبات ، ماذا لو رأيت كلَّ الغائبين و جالست كلَّ الموتى!!!

ماذا لو وجدت هدفكَ ينتظرُ أن تفتح عينيك لتكمله و أن ذاك الطريق الذي تهوى السير فيه يومئ لك بالقدوم.

ماذا لو استيقظت ووجدت نفسكَ طفلاً يكتشفُ أن الكبرَ الذي ينتظرهُ خدعةً ليست بالبهاء الذي كان يظنه.

في غرفة صغيرة أضواءها خافتة كانت زينب مكبلة ، فاقدة للوعي من وحشية ما فعلوه بها ، فتحت عينيها مرتعشة بعد أن سَكَبَ أحدُ الرجال الماء المثلج على وجهها قائلا: ما هو رقم هاتف والدكِ ؟.

أغمضت عينيها كأنها لم تسمع شيء ، فقد كانت تخشى على والدها منهم أكثر من خشيتها على نفسها لم يعد أساساً هناك ما تخشى على نفسها منه ، قال رجلٌ آخر : اسأل الشاب الذي أحضرها عن رقم والدها ربما يعرفه ، ستموت إن بقينا نعذبها و نحن نريدها حية.

اتصل الرجل بيزن و حصلَّ على رقمِ والدها ،

كانت زينب تسمع المكالمة ودموعها تسيل ألهذه الدرجة كانت رخيصة بالنسبة له ،

تتمنى أن لا ينصت والدها لهم أو أن تحدث معجزة يُحلُ بها كل شيء دون أن تلحق الأذى بوالدها ، هي حتى الآن غير مصدقة لما جرى تهمس بصوتٍ متقطع مختنق
(إنه كابوس... نعم إنه كابوس... سأستيقظُ بعد قليل...).

اتصل الرجلُ بوالدها ، ليجيب الوالد بسرعة فقد كان ينتظرُ خبراً عن زينب.

الرجل : إن ابنتك معنا هل تريدها؟.

ارتجف قلب الوالد ذعراً : من أنتم؟.

الرجل : لا يهم من نحن...إن كنت تريدها عليك أن تجهز عشر ملايين ليرة سورية و انتظار اتصال آخر إياك أن تخبرَ أحداً فسنقتلها حينها.

الوالد : أريدُ أن أسمع صوتها هل هي بخير؟.

صرخ أحدُ الرجال و هو يركلها بقدمه : تحدثي.

أبت زينب أن تنطق بحرف فقال الرجل لوالدها : سأرسل صورة لها.

حينها صرخت و هي تبكي: أرجوك لا تستمع لهم يا أبي ، اتركني أموت فالموت أصبح رحمة لي.

الرجل : لا تنسى المال.

ثم أغلق المكالمة ، خرج الرجال من الغرفة و بقي رجل على بابها للحراسة.

أغمضت عينيها في محاولة لتنام و تنسى كُلَّ شيء ، شعرت بحركةِ أحدهم في جوارها ، فتحت عينيها لتجدَّ يزن يقفُ بقربها و يرمقها بنظراتٍ لم تفهمها ، خاطبتهُ بصوتها المكسور(أرجوك لا تسمح لهم بإيذاء والدي و سأُتدبرُ لك ما تحتاج من المال).

تحدثَّ بكُلِ برود (يُحكى أن شاب كان يقيمُ مع شقيقهِ في منزلٍ واحد ، في أحدِ الأيام عادَّ إلى المنزل في وقتٍ لم يتوقع فيه شقيقهُ مجيئة ، وجدَّ فتاة تنام بين أحضانه اقترب ليرى فوجدها حبيبتهُ المُخلصة ، لم يدرِ ماذا عليه أن يفعلَّ بعد أن تلقى تلك الصدمة ، تركهما نائمين ثم خرجَّ من المنزلِ بهدوء و أقسم أن ينتقم شرَّ انتقام).

ركلّها بقدمِه(ستدفعين الثمن أيتها الخائنة و سيدفعُ والدكِ ثمن هذه التربية القذرة) ، حاولت أن تحدثهُ و أن تشرح لهُ مُتوسلة ، لكنهُ سرعان ما خرج و تركها وحيدةً مرة أخرى.

*****

اتصل والد زينب بكرم الذي كان قد أنهى صلاة الفجر و هو يدعو أن تعود زينب بخير ،ليخبرهُ أن يكُفَّ عن البحث عنها ، دغدغ الأملُ قلب كرم لكنَّ صوت والدها المُنحني و رفضه أن يخبرهُ بشيء زادَ من ارتيابه.

*****

في مساء اليوم التالي ذهب يزن لخطوبة منال ومعه الشيخ بعد أن أبلغت والدتها والدها بهذا ، وافق والدها عليه بعد أن وافق على جميع متطلباته.

كانت منال تعيش سعادتها على حساب تعاسة غيرها ، فبينما كانت تبكي فرحاً كانت زينب تبكي حزناً و قهراً.

*****

اتصل صاحب المنزل الذي كان يستأجره كل من كرم ويزن بكرم قائلاً: غداً آخر موعد لاستلم المنزل.

كرم : ألا يمكن أن تمهلني يومين أيضاً؟.

الرجل : يا بني منذ يومين و أنت تؤجل في تسليمه ، جاءني مستأجرين جدد لقد قال لي شقيقك أنه لا يريد أن يبقى في المنزل ، لم يعد هناك مجال للتأجيل أبداً.

كرم : حسناً سأترك المنزل غداً قبل المساء ... شكراً لأنك سمحت لي أن أبقى فيه لأيام إضافية.

لم يكن يعلم كرم سبب ترك يزن للمنزل و بقي مصراً أن لا يكلمه لأنه لم يخدع زينب فحسب بل خدعه له أيضاً حين كان يخبره أنه لن يتركها أبداً و حرمه فرصة أن يعترف لها بحبه و يقترب منها أكثر ، كما كان يظنُ أن له يد في سبب اختفائها.

*****

كان والد زينب جالساً في مكتبه ورده اتصال من نفس رقم الرجل الذي يحدثه بشأن زينب.

رد ملهوفاً : كيف حالها؟ لقد أمنت النقود.

الرجل : إن كنت تريدها حية عليك أن تأتي وحدك لتسليم النقود ستضع النقود في العنوان الذي سأخبرك به.

أخذ الرجل يخبره بالوقت و العنوان و بعد أن انتهى قام الوالد بالتأكد من عدد النقود في الحقيبة التي جناها من بيع المنزل الذي ورثه عن والديه ، كان شاحباً و كأنه قد تقدم في العمر عشرين عاماً في الفترة الأخيرة ، مهزوماً يشعرُ بعجزٍ لم يشعر به قط.

*****

حوالي الساعة الخامسة صباحاً خرج أبو زينب من مقرِ عمله قاد سيارته متجهاً إلى العنوان الذي أبلغه عنه الرجل و الذي كان أقرب ما يمكن للقرية المحتجزة فيها زينب ، كان المكان شبه مهجور اتصل به الرجل قائلاً:
أترك النقود بالقرب من حاوية القمامة .

- أين ابنتي؟.

-اتركهم أولاً و بعد أن نتأكد من أنك لم تخبر أحداً أن يتبعك سنعطيك إياها.

-أقسم لك لم أخبر أحداً... أسمعني صوتها على الأقل.

-إفعل ما قلته لكَ كي لا أؤذيها.

لم يكن بوسعه إلا أن يطيع أوامرهم ، و بينما هو يضع الحقيبة بجوار الحاوية حتى ظهر رجل كان يختبئ بجوارها من الجهة الأخرى و ضربه بكعب مسدسهِ على رأسه حتى فقد وعيه وسقط منهُ هاتفه.

وضعوه في صندوق سيارتهم بينما قاد أحد الرجال سيارته و توجهوا جميعاً نحو القرية.

*****

مع دخول خيوط الشمس إلى غرفته فتح كرم عينيه ، فمنذ اختفاء زينب لم يذق طعم النوم الهني ، كان يشتهي أن يغطَ في نوم عميق و يصحو على خبرٍ منها ، أمسك هاتفه و اتصل بوالدها ليجد خطه مغلقاً ، تنهد تنهيدة عميقة(يا إلهي ما أصعب الانتظار إنه جزءٌ من الموت ، منذ ولادتي و أنا أكره الانتظار فقضيت عمري أنتظر... ها أنا سأعود دون أن أعلم شيء عنها ... امنحني الصبر يا الله).

*****

دخل أحدُ الرجال إلى غُرفةِ زينب و كان أكثرهم قسوة ، أمسكها من شعرها لتنهض(هيا انهضي سنخرج).

قالت بصوتٍ مُتألمٍ بالكاد يُسمع : إلى أين؟.

ستحضرين مسرحية، قالها وهو يقهقه ضاحكاً.

ظنت أنهم سيقتلونها مشت برفقته بخطواتها المتباطئة وكأنها تمشي على الزجاج من الألم تقول في نفسها (سآتي إليك يا أمي .. سأراك مجدداً يا أخي .. منذ أن جاء خبر استشهادكما إلى الآن و أنا في كل لحظة أنتظر أن تيقظيني ، أن أفتح عيني لأراكِ أمامي مبتسمة ، لتخبريني أن هذا كابوساً مرعباً و أنكِ ما زلتِ حية أنت و سليمان ، و أن يزن لم يغدر بي و كرم لم يسافر و أنني لن أُلحق الأذى بأبي أبداً ، لتخبريني أنني ما زلتُ أنا لم أهان و لم أذل ، أنني لم أسلب كل شيء).

وضعها الرجل في سيارته و أخذها إلى ساحة القرية حيث كانت الناس تحتشد ومن بينهم ياسمين التي كانت قد خرجت لشراء بعض الحاجيات لتحضر لكرم غذاءً يليقُ به بعد أن أخبرها أنه على الطريق ، كان رجل يخطب بأعلى صوته : اجتمعوا أيها الناس شاهدوا مصير من خان وطنه ، اجتمعوا و خذوا العبرة.

وقفت السيارة بالقرب من ياسمين ، أنزل الرجل زينب التي رفعت عينيها البائستين فالتقيتا بعيني ياسمين التي كانت تراقبها بحسرة و شفقة ، وضعت ياسمين يدها على قلبها وهي تقول في نفسها (يا إلهي ... المسكينة).

أوقفها الرجل أقرب ما يمكن للساحة ، كانت كاميرات التصوير تترقب بعدستها الحدث كأنهُ مشهدٌ سينمائي، استعدت زينب لعناق الموت لعله يكون عطوفاً أكثر من الحياة لكن الصدمة حين أحضر أحد الرجال والدها ووضعه في منتصف الساحة ، تأملت وجهه المغطى بالدماء و بدأت تصرخ بصوت خرج من روحها : إنه أبي .... إنه أبي .... أرجوكم اتركوه ... أتوسل إليكم.

حاولت إفلات نفسها من الرجلين اللذان أمسكا بها بقوة و هي تصرخُ بأعلى صوتها : سامحني يا أبي .... سامحني يا حبيبي...أرجوكَ سامحني .. أنا من تسبب لكَ بهذا.

نظر والدها باتجاهها و هو بالكاد يفتح عينيه قال بصوت متألم : لا عليكِ يا ابنتي.

قرب أحد الرجال السكين من عنقه لنحره ، لم تؤثر بهم مناجاتها ، كادت حبالها الصوتية تتقطع و هي تصرخ : لا تقتلوه ... لا تقتلوه .... أرجوكم أبدو قليلاً من الرحمة .... أتوسلُ إليكم.

بعد أن حزت السكينة عنقه ، أخذت تضرب بقيود يديها الحديدة جبينها و هي تبكي : أحبك يا أبي .. أُحبك يا أبي.

حتى ملأت الدماء وجهها، ثم انهارت أعصابها وسقطت .

*****

لم تبارح ياسمين مكانها ، جلست على الأرض و الدموع تغمر عينيها من قسوة ما شاهدت ، و بعد أن أعادوا زينب إلى السيارة تماسكت نفسها عائدة إلى المنزل فأمسكت هاتفها المحمول و أرسلت رسالة لكرم قالت فيها(لن أستطع تحضير الغذاء اليوم أحضر معكَ طعاماً جاهزاً و أكثر منه فستأكل معنا خطيبة يزن).

كرم (خطيبة يزن!!!).

ياسمين(لقد خطب منال شقيقة زوجة عمك).

كرم (تافه).

ياسمين (ما بك لماذا تقول هذا إنه شقيقك).

*****

مشى كرم في شوارع القرية شعر كأن هناك أمراً غير طبيعياً قد حدث كان يسمع الناس يقولون في طريقه (ما ذنبها .... إنها مثيرة للشفقة ... لقد أبكتني ...لم أرَ شيئاً لكن سماع القصة لوحده جعلني أكتئب).

فتح باب المنزل و دخل إلى الصالة ليرى منال تضع رأسها على كتف يزن الذي كان ممسكا بيدها يقبلها ، لم يلقِ حتى التحية، همست منال في أذن يزن: لماذا لم يلقي التحية.

يزن : إنه متعاطف مع زينب.

ابتسمت منال: فلتذهب للجحيم المهم أننا سوياً.

اندفعت ياسمين عندما رأته من نافذة المطبخ المطلة على الصالة نحوه و أخذت تعانقه و تقبله ثم جلسا على الأريكة ،لاحظ كرم ارتجافَ يديها و شُحوبها ، سألها عن خطبها فأجابت

لقد رأيت منظراً تقشعر له الأبدان منذ قليل لهذا لم أستطع أن أطبخ أو أحضر المستلزمات التي ذهبت لإحضارها.

انهمرت دموعها و أكملت (المسكينة فتاة كالملائكة ، مرت من جانبي مقيدة ، التفتت إلي و كأنها تعرفني كانت عيناها تشعُ بالبراءة و الطيبة و ثيابها ممزقة بالكاد يظهر وجهها من الكدمات ، كان واضحاً أنهم قد مارسوا و حشيتهم معها بكل أشكالها ، عندما وصلت إلى الساحة ركعت على ركبتيها مُستسلمة لقدرها ، أو أظنها كانت تتمناه ، لكن ما إن رأت أنهم أحضروها لتشهد قتل والدها حتى مَلأَ صراخها القرية ، قتلوه أمام عينيها دون أن تؤثر فيهم دموعها أو توسلاتها ، أخذت تضربُ وجهها بقيود يديها حتى غابت عن الوعي).

كرم : يا إلهي !!! المسكينة ، هي من القرية ؟.

أجاب يزن خشية أن يشك كرم بأنها زينب: سمعتُ بأنها من سكان القرية الذين كانوا يقيمون خارجها.

لفت نظر كرم خاتم زينب في يد منال فقال لها : أريني خاتمكِ إن أمكن.

منال : لماذا؟؟؟.

يزن : ماذا تريد من الخاتم.

صرخ كرم : ولماذا انفعلتما هكذا ؟.

ياسمين : لا ترفع صوتك على شقيقكَ الأكبر ، لماذا أصبحت عدوانياً بهذا الشكل؟.

كرم : إنه خاتم صديقتي لقد أخذه منها ليعطيه لهذه الفتاة.

التفتت ياسمين بغضب إلى يزن : صحيح؟؟؟؟.

ارتبك يزن قائلاً : لا إنه يكذب لأنني قطعت علاقتي بصديقته المقربة.

كرم : إن أثبتُ أنه خاتمها هل ستعطيني إياه لأعيدهُ لها أم سآخذهُ بالقوة.

يزن : الزم حدودك يا أخي.

كرم: الزم أخلاقك كي ألزم حدودي.

غضبت منال من الشجار و نهضت لتعود للمنزل فقد خشيت أن يسلبها الخاتم فوقف كرم في طريقها(لماذا أنتِ خائفة صاحبُ الحق لا يخشى شيء).

قاطعتهما ياسمين : كرم إن كان لديك إثبات أن الخاتم لصديقتك فستأخذه فنحن لم نتربى على التلاعب بالعواطف و السرقة.

كرم : على الجدران الداخلية للخاتم مكتوبٌ اسم زينب .

نظرت ياسمين إلى منال و يزن نظرة حادة (منال أعطني الخاتم لأرى).

أعطتها منال الخاتم وقد احمرَ وجهها غضباً ، تمعنت ياسمين في داخل الخاتم وقالت : صحيح مكتوبٌ عليه اسمُ زينب.

أعطتهُ لكرم ، و نظرت إلى يزن مستاءة منه ، أمسكت وجبات الطعام التي أحضرها كرم قائلة: سأحضر الغذاء من المؤكد أن كرم جائع .

****

في المساء أمام الغرفة الموضوعة فيها زينب كان يقف رجل يحرس ، أتى إليه رجلٌ آخر فقال له الحارس: علي متى جئتَ من المهمة؟.

علي : اليوم صباحاً لقد أخبروني أن آتي و استلم الحراسة بدلاً عنك ؟

الرجل : حسناً سأذهب إنها جميلة يمكنكَ أن تقضي معها بعض الوقت، سيكون سعرها غالياً.

علي : مَن في الداخل ؟

الرجل : ابنة الضابط الذي أعدمناه اليوم.

ضحك علي : أيُ ضابط لقد استيقظت منذُ قليل ، كُلُ هذه الأحداث حدثت و أنا نائم.

الرجل : اسمه محمد العلي ، استدرجناه عن طريقِ ابنته.

تلاشت الضحكة من على وجهه(يمكنك الذهاب سأتولى أمرها).

دخل بعد ذهاب الرجل للغرفة اقترب من زينب متردداً و هو يأمل أن يكون ما يظنهُ ليس صحيحاً ، رفع شعرها ليرى وجهها جيداً ثم قال : زينب!!!!!!.

فتحت زينب عينيها عندما سمعت اسمها من صوتٍ ليس بغريبٍ عنها كان جسدها بأكمله يرتجف من الحمى و درجات حرارتها مرتفعة، تمعنت بوجه جيداً حتى تعرفت على صاحبِ الصوت أخذت تتحدثُ بصوتٍ بالكاد يخرج من حنجرتها: حتى أنت منهم ؟ ظننتكَ سافرت لذا تركت المدرسة في السنة الأخيرة ، لماذا قتلتم أبي ؟؟؟ أتذكر كم كنتَ تحبه .

-بعد وفاة والدي لم يبق معيلٌ لوالدتي المريضة سواي فتخليت عن دراستي و انضممت لهم بضغطٍ من بعض أصدقائي لأساعدها .... إن حالتكِ سيئة كثيراً عليَّ أن أساعدكِ .

-إن كنتَ تريدُ مساعدتي و في قلبكَ قليلٌ من الرحمة ،اقتلني، أرجوك اقتلني.

لمعت الدموع في عيني علي (كيفَ وصلتِ إلى هُنا ، من أودى بكِ لهذا المصير!!).

-أنا أوديتُ بنفسي و أوديتُ بأبي معي .

أخذت تخبرهُ بما حدث لم تُرد أن تموت دون أن تكشف حقيقة يزن ، همس بغض(السافل ظننتهُ يحبكِ حقاً) ، تأمل ماحلَّ بها و ذهب بذاكرتهِ إلى جلساتهم في المدرسة و سهراتهم مع عائلتها ، كيف انقلبت سعادتهم إلى هذه التعاسة.

التفت نحوها قبل خروجه فقالت متوسلة : سترحمني إن تركتني أموت.

****

بينما كان كرم مستلقياً رنَّ هاتفه فأمسكه ليرى بأن المتصل علي ، استغرب من اتصاله فهو لم يحدثه منذ مدة على الرغم من الصداقة المتينة التي كانت تجمعهما في السابق.

ألقى عليه التحية ثُمَّ سألهُ مُتردداً (هل تعلم بما حدثَ لزينب؟).

رد كرم ملهوفاً : زينب!!! أبحث عنها منذُ مدة ، هل تعلمُ شيئاً عنها؟؟؟.

علي : لقد خدعها يزن و ظلَّ يضغط عليها حتى أتى بها إلى قريتنا ثُمَّ قام بتسليمها واستدراج والدها مقابل مبلغ كبير من المال.

ارتعد قلبُ كرم وتجمدت في عروقه الدماء و تحدث بصوتٍ بالكاد يخرج من فمه من الصدمة : هي نفسها الفتاة التي تحدثوا عن إعدام والدها أمام عينيها!!!!! .

-نعم هي نفسها ، وضعها خطيرٌ للغاية سوف تموت إن لم نفعل شيء.

لم تعد تخرجُ الكلمات من فم كرم بسبب الصدمة

أكمل علي (كرم ، أعلمُ أنكَ تُحبها لكن عليك أن تتماسك و تضبط غضبك كي لا يُفضح أمرُنا ، ارتدي لباساً داكناً وغطي وجهك بوشاح أسود و أحضر معك جلباباً و نقاباً ، تعال إلى نهاية مزرعة الزيتون الخاصة بعائلة والدي

هي في غرفة مهجورة هناك و أنا من يحرسها سأتدبر لكما مخرجاً إلى تُركيا فالطريقُ إلى مدينة حلب مغلق بسبب الاشتباكات .

خرج كرم كالمجنون من غرفته ليخبر شقيقته أن تعطيهِ نقاباً وجلباباً ، لم يستطع أن يسيطر على نفسه عندما رأى يزن توجه نحوه و انهال عليه ضرباً ، لم يستطع يزن إبعاد كرم عنه لشدة عزمه و الغضب الذي يحكمه .

يزن : ما بكَ هل جُننت؟.

أخذ كرم يصرخ و يضربه قائلا: قلتَ لي أنك قطعت علاقتكَ بها... سلمتها لهم أيها الوضيع .. غدرت بها مقابل المال أيها الدنيء ...

هرعت ياسمين من غرفتها و أمسكت كرم من ذراعه بقوة و أبعدته عن يزن و هي تصرخ : كيف تجرؤ على ضرب شقيقك الأكبر.

كرم: إنه ليس شقيقي من الآن و لن يعود شقيقي إلى الأبد.

أكملَ وهو يلهث(أعطني جلباباً ونقاباً بسرعة عليَّ أن أذهب).

ياسمين : لماذا الجلباب و النقاب؟؟؟ ماذا حدث لعقلك؟ لن أعطيكَ شيئاً قبل أن أفهم.

كرم و الدموع تنهال من عينيه وهو يصرخُ بغضب: إن الفتاة التي رأيتها اليوم هي نفسها زينب أحضرها يزن إلى هنا لتتعرف عليكِ و سلمها لهم من أجل النقود ، هي نفسها الفتاة التي أحببتها لثلاثة أعوام ، هي نفسها التي رسبتُ في امتحانات الشهادة الثانوية لمرتين كي أبقى معها وندخلَّ إلى الجامعة سوياً.

لم تصدق ياسمين ما سمعتهُ عن شقيقها حتى وصفَّ لها كرم الفتاة التي شاهدت إعدام والدها ، فدخلت إلى غرفتها لتُحضرَّ ما طلبهُ منها و هي شاردة الذهن بعد الذي سمعته ، نهض يزن أمسك بكرم من ذراعيه بقوة

و دفعهُ على الجدار (تظنني لا أعلم بأنها قد قامت بخيانتي معك ، كفاكما تظاهراً بالبراءة).

أبعدتهُما ياسمين عن بعضهما مُجدداً أعطت الثياب لكرم موصيةً إياه بالحذر ، ثُمَّ غادر مُسرعاً.

*****

جلس علي بالقرب من زينب بعد أن فكَّ وثاقها ،يبلل يديه بالماء البارد و يمررها على وجهها لتنخفض حرارتها ، بينما تزيد جراح وجهها ألما .

وصل كرم بالقرب من الغرفة لكنه لم يدخل اتصل بعلي ليجيبه : أنا في الداخل أدخل.

دخل كرم ملهوفاً نظر إليه علي(إنها تغيب عن الوعي).

تأمل ثيابها الممزقة و الكدمات التي تملأُ وجهها وما يظهر من جسدها قاطع نظراته علي قائلاً و هو متخوف من أن يفشلوا : سأخرج لأتفقد المنطقة و أتحدث مع أدهم زوج شقيقتي ليأخذكم بسيارته ، ألبسها الثياب بأسرع وقت ممكن.

اقترب كرم منها و ضمها إلى حضنهِ بقوة و هو يقول : سامحيني ما كان يجب علي أن أسافر .

كان صدرها ينتفض و دقات قلبها متسارعة أخذ يمسح بالماء على وجهها ففتحت عينيها ببطء : كرم ! كنتُ مشتاقةٌ إليك ، الحمد لله أني رأيتك قبل موتي .

رد عليها و الدموع تكاد تسقط من عينيه على وجهها: لا تتحدثي هكذا ، ساعديني كي اُلبسكِ الثياب لنخرج.

-أريد أن أموت أتركني أرجوك.

-لا تقتليني يا زينب لا تقتليني ، أنا أعيشُ بوجودكِ و أتنفسُ من أنفاسك.

- الموت سيكون رحمة لي ، أقتلني أرجوك.

-أُحبكِ أيتها المجنونة ، أحبكِ يا وطني ، يا سوريتي أنتِ ، إن لم تذهبي لنمت هُنا سوياً.

- أرجوك اذهب ... أمامك ما تعيشه أنا فقدت كل شيء.

- ليس لدي شيءُ أعيشهُ من دونكِ .

-بالكاد أستطيع أن أتنفس أشعر أن الهواء يقل.. اذهب.

-لن أدعكِ تموتين فأنا لن أذوق السعادة إن حدث هذا ، إن لم تساعديني في ارتداء هذه الثياب سأحملكِ و أخرج بكِ هكذا و ليقتلوني حينها، ليس عليكِ أن تفعلي شيء فقط حاولي أن تبقي يقظة لا تغمضي عينيكِ حتى لا تغيبي عن الوعي.

أخذ يُلبسها الثياب و بعد أن انتهى طبع قبلة رقيقة على جبينها(عليكِ أن تكوني بخير لأجلي أنا).

دخل علي قائلاً :السيارة تنتظر في نهاية المزرعة من الجهة الأخرى .

- ألا يستطيع أن يأتي بها إلى هنا فهي متعبة جداً.

-لا فحينها عليه أن يسلك طريقاً يحوي نقطة تفتيش و عندها سيشكُ بأمره ، قبل ذهابك اضربني كي لا يشكو بأني متعاون في تهريبها.

لكم كرم علي بضعة لكمات بقوة حتى تصبغَ وجهه ثم ارتمى أرضاً.

****

بين ماضٍ لن يعُد و مستقبلٍ مجهول أمشي ، أُثني على نفسي لأستمر ، أنفضُ غبار الخيبةِ و أمسحُ بقايا الخذلان العالقة في قلبي ، كنتُ أعلم

لكني تظاهرت بالجهل ، كنتُ أدرك ، أقنعتُ نفسي أني صدقتُ بأن نهاية سعيدة تنتظرنا و أنا أعلم بأنهُ حزنٌ غير منتهِ كتبتهُ على نفسي بيدي.

حمل كرم زينب بين ذراعيه مسرعاً نحو السيارة (اصبري سنصلُ قريبا) .

وفور وصوله وضعها في المقعد الخلفي و جلس بجوارها.

-يبدو أن وضعها صعبٌ جداً.

- ستكون بخير ، لكن أرجوك أسرع.

كشف كرم عن وجهها و شعرها و اخذ يبلل وجهها بمياه من القارورة التي جواره ، نبهه أدهم قائلاً: هناك نقطة تفتيش توجد أحيانا سأبلغك قبل الوصول إليها لتغطي لها شعرها و وجهها.

- أظنني نسيت بطاقتي الشخصية و هي أيضاً ليس معها بطاقة.

-لن يسألوا عن بطاقاتكم فهم يعرفوني جيداً ، لكن كيف تنسى بطاقتك الشخصية تهاجر من سوريا بدون بطاقة تثبت شخصيتك هذا لا يجوز.

ضم زينب إلى صدره أكثر و قلبه منقبضٌ خوفاً عليها قائلاً: أنظر إن سوريا بأكملها بين ذراعي .

كان صوت الاشتباكات يقترب أكثر كلما اقتربوا من الحدود و كأن الدنيا بأكملها تطاردهم ، أوقف أدهم سيارته بالقرب من الشريط الحدودي قائلاً: عليكم أن تتجاوزوه بأقصى سرعة ، هنا تكون قد انتهت مهمتي ليحفظكم الله ، هيّا أسرعا.

حاولت زينب أن تتمالك نفسها و تقف لكي لا تكون عبأً ثقيلاً على كرم ، قال لها كرم فور نزولهما : أنظري لم يبق سوى القليل كوني قوية ،

انطلقت سيارة أدهم في طريقها للعودة لكن على مسافة ليست ببعيدة شاهداها وهي تتطاير إلى أجزاء بعد أن سقطت عليها قذيفة صاروخية، و

انتثرت شظاياها بجوارهما ، قالت زينب بصوت مرتعد : لقد تسببنا بموته.

لا تنظري إلى الخلف علينا أن نسرع ، قالها بحزن. -

تجاوزا الشريط الحدودي ، اقترب كرم من زينب ليحملها فقالت: فقط اسندني و أنا سأمشي.

اقتربا من الوصول إلى المنازل في إحدى القرى التركية المجاورة للحدود ، لكنها لم تستطع المناضلة أكثر جلست على الأرض و هي تلهث قائلة : ما عاد بوسعي الاستمرار.

جلس كرم بجوارها ووضع يده خلف ظهرها مقرباً إياها إلى صدره ثم قال بصوت متعب: لا عليكِ ... يا إلهي إنكِ ترتجفين.

زينب : أشعر ببرد شديد و جروحي تؤلمني.

حملها ووضعها خلف أحد الأشجار كي لا تظهر لأحد قائلاً : انتظريني هنا لن أتأخر.

أغمضت زينب عينيها و غابت عن الوعي تماماً ، بينما ركض بأقوى سرعة لديه حتى وصل إلى أحد البيوت ، قرع الباب و هو يلهثُ ملهوفاً ، فتحَ له رجلٌ في الأربعينيات من العمر تبدو عليه البساطة ، كان كرم يعرف بعض الكلمات التركية فقال : أرجوك ساعدني ، أحتاج المساعدة .

-أدخُل.

-لست أنا لقد تركتها على مشارف القرية إن حالتها سيئة للغاية.

تناول الرجل مفاتيح السيارة ثم ذهب برفقة كرم إلى حيث تركها ، حملها ووضعها في السيارة و هو يقول للرجل : خذنا لأقرب مشفى من فضلك.

كانت بالنسبة لهما رحلة بين الحياة و الموت فإما أن تُرحب بهما الحياة أو تسجنهما في غرفة الموت لديها.

*****

((قتلوا داخلنا أشياء ظنناها لن تموت صهروا قلوباً كانت صلبة كالفولاذ))

الحقوق الفكرية محفوظة.